ومن الحضارة ما قتَل

بقلم : حمد محمد المرعي

قانون الغاب، وما ادراك ما قانون الغاب، هو السائد في الحضارة الغربية، وهو المفهوم العام غير المرئي الذي يحدد قيم واخلاقيات تلك الحضارة، وانماطها ومقوماتها الكونية، والفظيع اذا ما كان في الامر من فظاعة، هو تسخيرها لكل الاساليب والوسائل والطرق - مشروعة كانت ام غير مشروعة - لتكسية اهدافها بحلّة مزرية، ولكن مزركشة بكل سبائك ونقوش الاخلاق والقيم السامية لم تبدأ تلك الحضارة بسرقة حضارات الغير وتجييرها باسمها. ولم تبدأ بغزوات الاسكندر الاكبر الطائشة او بالحروب الصليبية او بالاكتشافات الجغرافية او باحتكار ثروات الغير وجعلهم بشرا مضطهدين من الدرجة الدنيا. ولم تبدأ بتلك الحروب المدمرة للبشرية عام ١٩١٤ او عام ١٩٣٩. لا، ولن تنتهي بتلك الاداة القنبلية المدمرة لتقتل وتصلّي وتيتم وتشرد وتعيق مئات الالوف مما خلق الله من بشر في مأساة هيروشيما في اغسطس ١٩٤٥.

وكيف تنتهي وقد ألبسوا تلك القنبلة المصنوعة من نار جهنم أبهى الحلل واجملها، باسم انهاء حرب طال زمنها عليهم واجهادها لهم كانوا هم البادئين بها والمخططين لاهدافها؟

وكيف تستقيم هكذا حضارة وهم حالما انتهوا من حرب الافيون في الصين، تلتها حرب الفلبين مرورا بتقسيم الهند، ثم الحرب الكورية لتتلوها حرب فيتنام الممقوتة، ومن بعدها حرب افغانستان الملتهبة. اما الحروب العربية - الصهيونية برعاية تلك الحضارة النزيهة فحدث ولا حرج. وما دام الامر مستطيبا لهم فلا بأس من مساندة اي دكتاتوريات ظالمة او عزل شعوب فقيرة ضعيفة مضطهدة (راجع قانون الكونغرس الاميركي الغريب بانه يصح حصار الشعوب وتجويعها الى الموت واغتيال الافراد، ولكن لا يصح معاقبة حكام تلك الشعوب المظلومة الدكتاتوريين من امثال صدام والذين هم اصل المشكل والبلاء).

بل وتستمر افعال تلك الحضارة بتدمير اي اقتصاد قد ترى فيه، ولو من بعيد، اي تهديد لاحتكاراتهم وسيطرتهم على نعم الله التي عمّها المولى على البشرية للبشرية جمعاء: ولم يكن ما حدث لاقتصاد شرق آسيا، وتدني اسعار النفط العربي مجرد مصادفة زمنية او عارض حدثي، وانما مسألة كان لها ميقات ، فسحب البساط وفرملة العجلة اُعتبر من اهون الامور لديهم وهكذا هي مصداقيتهم.

وان لم يكن الامر كذلك فليحدثونا عما جرى في البوسنة، وما يجري الآن وفي عز النهار في كوسوفو، وقبل هاته وتلك مذابح دير ياسين والخليل في فلسطين وتكسير العظام وبقر بطون الحوامل بشاتيلا في لبنان.. والكشف يطول. اما رواندا وبوروندي الافريقيتان، فالحال من المحال. ولنتذكر ولو لمجرد الاستذكار استقالة (او ابعاد) سايروس فانس من لجنة الامم المتحدة الاشرافية في حرب البوسنة: هل كانت وليدة قناعة ام مبادئ ام اشمئزاز وجبن وضيق حيلة في مواجهة ما يحدث هناك؟ عندئذ كانت اميركا تماطل بالتدخل بادعائها انها مسألة اوروبية، واوروبا بدورها تغمض العينين بادعائها انها مسألة داخلية.. ونسيت اميركا، وتناست اوروبا ونسينا نحن معهما انها مسألة انسانية بحتة - لا اقل ولا اكثر. المهم في الامر لديهم ان تطول فترة التدمير ليتحقق اكبر قدر من البلاء ليخرجوا لنا، وكأنهم حماة البشرية، وانه لولاهم لقضي على الجزء اليسير مما تبقى من الانفس البشرية.. نساء واطفالا وشيوخا. وهكذا كان وما زال قانون الغاب لديهم. فالغرب هو من يجوّع الشعوب ليتشرف بارسال المساعدات لهم، والغرب هو من يقتل البشرية ليمشي في جنازتها.

فهذا القانون المسمى لديهم بـ «القانون الدولي» يلوّنونه حسبما شاؤوا او شاءت لهم الظروف.. وهم بهذا فنانون مبدعون. فالابيض بمشيئتهم يتحول الى اسود والاحمر الى ازرق، وتختلط الالوان ليتحول الامر غير المشروع الى حقيقة مشروعة والعكس صحيح. فالتضليل والتحايل وتحوير الكلم، هم لها قادرون ومتمكنون، فمؤسساتهم وتنظيماتهم وتجمعاتهم الاعلامية والمخابراتية، وبالطبع المالية، ولا ننسى العسكرية التي تعمل ليلا ونهارا وبمثابرة مستمرة ومنقطعة النظير، وعلى الدوام.. جاهزة تحت الطلب كيفا وكمّا وتوقيتا.

فغسل المخ لا يوجد الا عند غيرهم اما عندهم فهو المنطق والعقلانية، شاء الغير هذا ام ابى، ان كان له ان يأبى. والغرب اوجد هذا القانون المطاط ليرضعه متى ما كان يؤمن مصالحه، ولو على حساب مصالح ودماء الآخرين. وهو لا يتورع عن اجهاض هذا القانون مرة تلو المرة متى ما كانت انانيته على المحك. فقانونه الدولي هذا «اعور» لا يرى ولا يبصر الا بعين واحدة. تماما مثله مثل شعارات الديموقراطية وحقوق الانسان.. الخ الخ المنادين بها. فهي للعنصر الغربي وحده وما عداه حتى ولا حقوق الحيوان!

وهكذا حضارة، لا يمكنها التعايش مع غيرها على ارض الله الواسعة من دون عدو لها. ولهذا كان عليها ان تخلق «ابليسا» من اي كان لتستقيم معادلة الخير والشر حسب مفاهيمهم المغلوطة ووفقا لقيمهم المقلوبة. او هل هي «نظرية القناص» الذي لا فائدة للبندقية التي بين يديه في غياب فريسة يهدّف عليها ليقنصها؟ فان كانت أبالستهم في القدم العلماء او السحرة، ثم المذاهب الدينية ثم حركات التحرر فلقد اتوا اخيرا بالشيوعية. والآن وعلى ابواب القرن الحادي والعشرين من تقويمهم الميلادي، وكأنه لم يكن قبل ميلاد نبيّهم من خلق بشري وحضارات انسانية ازلية، لم تذهب الا بعد ان قدمت ما قدمته واضافت ما اضافته للبشرية والانسانية، وها هم بعد ان تحققت سيطرتهم العالمية جاؤوا بإبليس جديد الا وهو الارهاب، وعلى وجه التحديد، «الارهاب الاسلامي» ليمثل إبليسهم الجديد. حتى لكأن جائزة «نوبل للسلام» خلقت في معبد رباني وليست في معمل متفجرات.. وللموضوع صلة.